سؤال الأخلاق عند أركون من البعد الديني إلى أفق الأنسنة والحداثة

The ethical question in the thought of ARKOUN, from the religious dimension to the horizon of humanization and modernity

د. عباس الصادق [1]*، د. عباس أمين [2]

[1] جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله. الجزائر، abbassphilo@yahoo.fr
[2] جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس. الجزائر، Aminabbas73@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/08 تاريخ القبول: 2022/09/25 تاريخ النشر: 2022/09/30

الملخص

تعتبر القيم الأخلاقية من بين أهم المفاهيم التي حاول مُحَمَّد أركون تناولها بالدراسة وتأطيرها ضمن مشروع نقد العقل الإسلامي، من أجل تفكيك كل مرتكزاته الفكرية والتاريخية، وهذا للوصول إلى تجديد الفكر الأخلاقي ضمن المقاربات الحداثية. والتخلص من كل المقولات الأخلاقية التي تنتمي إلى إبستيمية العصور الوسطى ذات البنية الدينية المغلقة والدوغمائية. فتحرير الأخلاق من هذا العقل الديني سيمكننا من تأسيس أخلاق جديدة ذات أبعاد حداثية تتوافق مع رهانات العصر.

Summary

the values are among the most important concepts that MUHAMED ARKOUN tried to study and frame withim the project of criticizing the islamic mind, in order to ismantle its intellectual and historical foundations, and this is to reach the renewal of moral thought ithim the modernist approaches. And get rid of all moral statements that belong to the medieval episteme with a closed religions structure and alogmatism. freeing morals from this religions mind will enable us to establish new morals with modern dimensions that are compatible with challenges of the age.

* - د. عباس الصادق: abbassphilo@yahoo.fr

الكلمات المفتاحية: الأخلاق؛ الأنسنة؛ الحداثة؛ البعد الديني.

Keywords : ethics; humanization; modernity; The religious dimension.

مقدمة:

لقد اشتغل مُحَمَّد أركون طيلة مسيرته الأكاديمية على مشروع نقد العقل الإسلامي لتحرير الوعي الإسلامي، الذي مازال مرتهنا لمنظومة تراثية وفقهية تنتمي إبستيميا إلى العصور الوسطى، رغم أن العالم دخل إبستيمية جديدة- إبستيمية العصر الحديث والحداثة الغربية- وما أنتجته من فتوحات معرفية وعلمية. لهذا دعا إلى إعادة النظر في كل المنظومات الفكرية والدينية والقيمية التي أنتجها العقل الإسلامي من أجل مواكبة عصر الحداثة. ومن بين أهم المنظومات التي أنتجها العقل الإسلامي، المنظومة الأخلاقية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمنظومة الدينية والفقهية، وعلى هذا الأساس أراد أركون إعادة طرح سؤال الأخلاق ضمن مقاربة جديدة وفق أفق الأنسنة والحداثة.

فهذا العمل النقدي لأركون يستدعي تفكيك المرتكزات الفكرية لعلم الأخلاق في السياقات الإسلامية، وأشكلتها ضمن الرهانات الأخلاقية المعاصرة، وموضعتها في سياق الأنسنة لتدخل ضمن سلم القيم الإنسانية الكونية. فهذا التصور الأركوني الجديد في الفضاء الفكري العربي الإسلامي يجعلنا نطرح مجموعة من التساؤلات: هل إعادة بناء منظومة القيم الأخلاقية على الأنسنة هو إلغاء لأحد أهم الإبعاد الروحية والتشريعية الإسلامية؟ هل أنسنة الأخلاق تكون ضمن أطر الحداثة الغربية أم ضمن سياق الأنسنة العربية الإسلامية؟ وهل مشروع الأخلاق الكونية هو إلغاء للخصوصية الإسلامية؟ كل هذه الإشكالات سنحاول الإجابة عليها في هذه الورقة البحثية.

1. سيمات الفكر الاخلاقي الإسلامي القديم

إن إعادة طرح سؤال الأخلاق في الفكر العربي- الإسلامي ليس بالأمر الهين والسهل؛ لأنّه سؤال مرتبط بمنظومة فقهية ولاهوتية، فعدم العودة إلى اللحظة التأسيسية للعقل الإسلامي لا يمكن أن نلمس فكر أخلاقي في الفكر الإسلامي دون العودة إلى منظومة القيم التي أرساها القرآن، يقول مُحَّد أركون في هذا الصدد: نحن "نريد استخراج واستخلاص النظرية الأخلاقية القرآنية التي وجهت حتى يومنا هذا ممارسة كل الفكر العربي الإسلامي طيلة تاريخه الطويل."(أركون، 1990، ص 21)

يقصد أركون بالنظرية الأخلاقية ضمن السياق القرآني "المبادئ المحورية الخلقية التي رسخها القرآن ... وهي معنيان اثنان: فالأولى تشير إلى نقد القيمة، كما يبدو عليها هذا النقد في النص القرآني ذاته. والثانية فهي تدل على نظام القيم المحورية التي رسخها هذا النقد."(أركون، 1990، ص 21) فالقرآن قام بنقد منظومة القيم الأخلاقية القديمة وأرسى منظومة وسلم قيم جديدة، رغم طابعها الروحي والتأملي المستمد من طبيعة الوحي نفسه.

فقد عمل العلماء والفقهاء على عدم الاكتفاء بالتأمل الروحي لها، فقد حاولوا تجسيدها في الحياة اليومية لكل مؤمن في كل لحظة من لحظات حياته ووجوده."(أركون، 1990، ص 21) بهذا تصبح الأخلاق كمنظومة قيمية وسلوكية ربطت من الوهلة الأولى لتشكل الوعي الإسلامي بالنصوص الدينية.

فهدف أركون من خلال طرح سؤال الأخلاق في السياقات الإسلامية المعاصرة، هو دراسة "نظرية القيم المحورية للأخلاق، ليس من أجل إعادتها أو تدعيم هذه التعاليم وقيم اليوم، التي يقوم بها أناس آخرون عديدين من مربين وخطباء ووعاظ."(أركون،

1990، ص 22) وهي أدبيات غزيرة منتشرة جدا في الفضاء الإسلامي من خلال الكتب، وتعقد من أجلها المؤتمرات والندوات، لكنه يهدف – أركون – إلى تحقيق شيء آخر فهو يريد موضعة هذه القيم المحورية بالقياس إلى القيم المحورية الخاصة بالعقل المستقيل (عقل ما بعد الحداثة)، الذي يعتبر معطى الوحي بمثابة مادة للمعرفة النقدية، وليس مصدرا للتربية والتأسيس والتهذيب."(أركون، 1990، ص 22) وهي نظرة تقليدية سكولائية للأخلاق التي تقوم على التمجيد؛ لأنها من مشكاة الوحي، فلا يمكن نقدها أو المساس بقيمها، وهذا ما جعل الفكر الأخلاقي حبيس التصورات التيولوجية والدينية.

لقد لاحظ أركون أنّ الكثير من الكتاب المسلمين يقومون بدراسة الأخلاق في القرآن دون أن يهتموا باللعبة النظرية والتداخل والتفاعل المتبادل بين المحورية الأخلاقية القرآنية، والمحورية الأخلاقية الخاصة بالعقل النقدي. ومن المعروف أن العقل النقدي لا يمكن أن يكون خاضعا للتيولوجيا التقليدية ... فهو يهدف من وراء كل ذلك إلى تغيير اللغة النظرية التقليدية، والتوصل إلى لغة جديدة متوافقة مع العصر من أجل عرض الرؤيا الأخلاقية والسياسية للإسلام، كما هي بشكل تاريخي."(أركون، 1990، ص 22) الذي سيحرر الأخلاق من الحمولة المتعالية والتقديسية، ويزحزحها من إطارها المطلق المرتبط بالنص الديني إلى فضاء النسبية والفعل الأخلاقي المتوافق مع تحديات ومتطلبات العصر.

لقد كان المسلمون عبر التاريخ الحضاري ينظرون إلى علم الأخلاق والآداب، وهم حرصون على "إتباع قانون الدين الأعلى، وقد تجلى في المناقشات التي دارت حول مكانة الفعل البشري. فالمعتزلة رأت أن الأفعال البشرية –مثلها مثل أفعال الله–خاضعة

للتقويم الأخلاقي بالقياس إلى مرجعية الشروط الداخلية والخارجية لإنتاجها ولتوليدها. لقد زود الله البشر بمعرفة داخلية حدسية تتيح لهم أن يتعرفوا مباشرة؛ إذ ما كان الفعل إجباريا أو محمودا أو مذموما أو حياديا أو سيئا، وهم يعتقدون أنه لا يوجد تحديد مسبق للفعل: فكل البشر خاضعون للقواعد نفسها التي تتحكم بإنتاج الأفعال في حالة معينة وظرف محدد من ظروف العالم المخلوق. والله في عدالته الكاملة واللانهائية مضطر لمكافأة عمل الخير، ومعاقبة العمل السيئ. وهكذا نجد بحسب تصور المعتزلة، أن القانون الديني مفهوم مطبق من قبل الإنسان العاقل، وهو يتمتع بكامل ملكاته ومسؤولياته. فالإنسان بحسب منظور المعتزلة كائن عاقل ومسؤول بكل معنى الكلمة."(أركون، 1990، ص 35)

أما الموقف الأشعري فهو أقرب إلى الموقف الذي ألهم تشكيل أصول الفقه، الذي يريد المحافظة على الأولوية الأنطولوجية لقدرة الله وجبروته، على عكس المعتزلة الذين يولون قدرا زائدا عن الحد من الاستقلالية للعقل البشري، فيما يخص فعالية المعرفة، الأشاعرة ترى أن الأحكام الخلقية الخاصة بالأفعال لا تستمد شرعيتها من الأفعال ذاتها، وإنما تستمد الشرعية من أقوال الله ذاتها، وقد قال أبو قاسم الأنصاري(512هـ_1118م) وهو من كبار علماء الأشاعرة " المذموم المحمود ليس صفات لما هو محمود أو مذموم، ولا هي عبارة عن أنماط تتخذها وتتداخل بواسطتها؛ المحمود والمذموم ليس لهما أي معنى غير تشريع الأمر والنهي من قبل الله."(أركون، 1990، ص 36)

يريد أركون من خلال عرضه للمواقف العقائدية والدينية لمختلف المدارس الإسلامية، "تحليل أنماط تلقي القانون الديني من قبل مختلف المذاهب كما نص عليها

القرآن، وهذا من أجل إعادة فهمه طبقا للإدراكات والتحديدات الثقافية السائدة، والمجادلات الفكرية المحيطة بكل بيئة تاريخية. هذا ما سيجعلنا نفهم كيف تم المرور والانتقال من مستوى المحورية القرآنية إلى هذا النظام العقائدي أو ذاك (من المعتزلة إلى الأشاعرة ...) والمرتبطة حتما بشروط تاريخية التي تتحكم بإنتاجها وفهمنا لهذه الدياليكتيك الكائنة بين الأخلاقية القرآنية وتاريخ الفكر العربي- الإسلامي، والذي يعتبر من اللامفكر في السياقات الإسلامية، والنبش في هذه الإشكالية سيتيح دراسة المكانة المعرفية للأخلاق، ووضعها على محك التاريخ، الذي يسمح بوضع كل نظام أخلاقي على محك التاريخ ليجرب نفسه من خلال التاريخ."(أركون، 1990، ص 36)

لقد استمر هذا الوضع حتى مع الفكر الإسلامي المعاصر (منذ المرحلة الإصلاحية في القرنين التاسع عشر والعشرين حتى النهضة الإسلامية المعاصرة)، "الذي هو بدوره لم يقم بأي مبادرة تيولوجية أو فلسفية من أجل تحليل القانون الديني، الذي أعتبر بالنسبة للمسلمين المعنى النهائي والأخير للوجود، والخط الوحيد لامتلاك هذا المعنى وتجسيده في مجرى زمن التاريخ الأرضي. هنا تكمن الفرادة المطلقة للقانون الديني، والتحدي المستمر الخاص بالمحورية الاخلاقية القرآنية الذي يعبر الزمن ويخترق القرون، ويستمر حتى يومنا هذا. فلا يوجد في الفضاء الفكري العربي والإسلامي أي مفكر درس العلاقة الجدلية والدياليكتيكية بين القانون الديني أو الشريعة وبين التاريخ."(أركون، 1990، ص 37) من أجل الكشف عن التلاعبات الايديولوجية والمصالح الفئوية لكل مذهب يدعي الإطلاقية باستخدام النصوص الدينية دون مراعاة السياقات التاريخية الذي أنتج فيه هذا الفكر الأخلاقي.

فالفهم الجيد لمنظومة القيم الإسلامية، وكيفية تشكلها ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار المنتجات العقائدية والتجربة التأسيسية، والتي تمثلت تاريخيا بالمذاهب والمدارس والطوائف، والتي تستحق الدرس والاهتمام بدون استثناء؛ لأنها تعتبر بمثابة محاولات لتجسيد الأخلاقية القرآنية في التاريخ البشري المحسوس. وهذا ما يسمح بإجراء تقويم شامل للمحاولات الإسقاطية، ليس داخل الإطار البدعوي للتصنيف التيولوجي المعهود للطوائف التي تقوم بإلغاء بعضها البعض على اعتبار أنها الفرقة الناجية، وباقي الفرق على ظلال..."(أركون، 1990، ص 38) وهذا هو سبب عدم إنجاز العرب والمسلمين لمدونة أخلاقية جديدة تستجيب لمتطلبات العصر، وهذا نتيجة "التعصب الأعمى والفهم الخاطئ للدين وهو المشكلة. فالدين الذي يتحول إلى سياسة محضة ويحلل القتل أو يدعوا إليه لكي يحافظ على احتكاره لممارسة العنف الشرعي، ويفقد أحقيته في تأسيس أي نوع من أنواع الأخلاق."(أركون، 2011، ص 224)

2. الأخلاق وجدلية الأنسنة عند مُحَمَّد أركون

إن الموقف الجديد الذي يدعو إليه أركون لن يتحقق دون الخروج من الأدبيات البدعوية الموروثة التي تقوم الطوائف والمذاهب بالقياس إلى المقاصد القرآنية من جهة، ثم بالقياس إلى الإكراهات وحتميات كل منعطف تاريخي، وكل وسط اجتماعي ثقافي من جهة أخرى، ما يعني وضع حد للامتيازات التيولوجية التي تخلعها على نفسها بعض الفئات (الطائفية والمذهبية) باسم الدين الصحيح أو الإسلام الصحيح، والذي ينفي ما عداه ويرميه في ساحة الخطأ والضلال والزندقة، وهذا المنظور البدعوي القروسطي، والذي مازال سائدا حتى اليوم في قطاعات واسعة من الرأي في العالم الإسلامي التي لم تعد مقبولة اليوم من الناحية العلمية والمنهجية."(أركون، 1990، ص 38)

من أجل تجاوز هذا العقل البدعوي الذي ينحدر من العصور الوسطى يتوجب القيام بعملية زحزحة، والتي تعد شرط ضروري لتجديد الفكر الإسلامي والعربي. وهذه الزحزحة ستتيح لنا الانتقال من المرحلة التيولوجية الدغمائية (التي تحولت في القرون المتأخرة إلى سكولائية عقيمة) إلى مرحلة البحث العلمي المنفتح على دراسة تجديدات وفتوحات الأخلاقية القرآنية داخل مجرى الزمن التاريخي الأرضي، وليس داخل مجرى الزمكان المقدس."(أركون، 1990، ص 38)

إن الطريق الذي ينبغي على المسلمين سلكه حسب أركون للخروج من الإنغلاقات والتعصبات الدينية هي الأنسنة، التي تجسدت في العصر الذهبي أو الكلاسيكي من عمر الحضارة العربية الإسلامية؛ أي طيلة القرون الستة من عمر الحضارة الإسلامية، وحتى موت ابن رشد وسقوط آخر معاقل الفلسفة في الأندلس. بعدئذ دخلنا في عصور الانحطاطية الإجترارية والتكرارية التي ترفض أي تسامح أو تعددية، والتي ماتت فيها النزعة الإنسانية، وظلت ميتة حتى فجر النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر عندما انتعشت من جديد إلى حد ما على يد مفكري النهضة."(أركون، 1990، ص 12)

فالهدف الأول من معركة الأنسنة التي يخوضها أركون هو أن "يتجاوز الفكر الإسلامي أزمته الفكرية والروحية. وهذا الفكر الذي تصادره وتحتجزه إيديولوجيا المعركة وتكبله مؤسساتها الميثولوجية."(أركون، 2010، ص 34) فبتحرر الفكر الإسلامي من سطوة المقدس سيتم بالضرورة فك الارتباط بين المنظومة الأخلاقية والمنظومة الدينية التي لا تسمح إلا بصيغة معينة من صيغ الإنسية؛ وهي صيغة محصورة داخل جدران النظام العقائدي الخاص بكل دين، ويقدم مؤلف هذا النظام دائما على أساس أنه الإله

المتعالي المليء بنيات الطيبة والحسنة تجاه الإنسان. وقد ظل هذا النظام الديني مهيمنا على عقول البشر حتى ظهور الحداثة الفكرية المتسلحة بالنقد التاريخي للنصوص، بما فيها النصوص المقدسة... وبهذا تصبح كل الأنظمة العقائدية أو الدينية خاضعة للتاريخية، وليست فوق التاريخ كما يتوهم المؤمنون."(أركون، 1997، ص 18) وهذا ما يعني بالضرورة تفكيك المنظومة الأخلاقية الإسلامية التي تستمد مشروعيتها من النصوص المقدسة. فتاريخية النصوص الدينية يحيلنا إلى نسبية القيم الأخلاقية، وهذا ما سيسمح من تحرير الأخلاق من بعدها العقائدي الديني لتعتنق مجال الإنسانية.

فعند استقراء التاريخ الإسلامي نلمس تجارب فلسفية حاولت أنسنة الأخلاق وإخراجها من البعد الديني والفقهي إلى فضاء أرحب واوسع هو فضاء الإنسانية. "ومن بين أهم هذه التجارب تجربة مسكويه الذي يعتبر من بين الفلاسفة الذين حاولوا إخراج الأخلاق من تحديداتها الدينية والفقهية، وحاول مقاربتها مقاربة إنسانية، وهذا ما لحظناه عندما عمد إلى الاستشهاد (أكثر من غيره من الوعاظ الأخلاقيين الإسلامين)، ومحاولة إبراز التوافق العقلي بين عظماء الماضي وعظماء الحاضر، الذين يستطيعون دراسة الوقائع والأحداث على طريقة أرسطو وأفلاطون مثلا. فباستخدام هذه المنهجية فإنه يخلع مزيد من الحقيقة والمصداقية على التجارب الشخصية التي تولد الإقناع. فالاستشهاد بأفلاطون وأرسطو يزيد من قيمة رأيك ويقنع الآخرين بذلك. وبهذا تصبح كل التحديدات الاخلاقية والتحليلات المتعلقة بالفضيلة والرذيلة التي يحتويها كتاب تهذيب الاخلاق لمسكويه بصفتها ليست فقط كمقاربة علمية، وإنما أيضا كقواعد أخلاقية تلهم السلوك."(أركون، 1997، ص 108)

بهذا يكون مسكويه من بين أهم الفلاسفة المسلمين الذي استلهم من التراثات الإنسانية للحضارات السابقة من أجل بناء نظريته الأخلاقية، وهو خروج من سياق العلم لما هو سائد في الثقافة الإسلامية، والتي كانت تربط الأخلاق بالقيم الدينية. فالمنظومة القيمية كانت تستمد مشروعيتها من النصوص الدينية، وإقصاء أي رافد من الروافد الثقافية والإنسانية للأمم الأخرى.

لقد سعى أركون إلى تكريس النزعة الإنسانية الشاملة التي تتجاوز حدود الأديان والطوائف والأعراق؛ لكي تصل إلى إنسان في كل مكان، وإلا فلن تكون نزعة إنسانية حقيقية. فإذا ما تم استثناء إنسان واحد من نعيمها تكون قد فقدت إنسانيتها، وبهذا يقع على عاتق الإنسان الواحد والكثيرين تحقيق وتجسيد الفلسفة الإنسانية الكونية."(أركون، 1997، ص 29) وهذا العمل يجعل المسلمين يدخلون ضمن نطاق منظومة القيم الجديدة للإنسانية، والخروج من المنظومات الأخلاقية والقيمية القديمة التي تستمد مشروعيتها طيلة قرون وقرون من مصدران أساسيان يغذيان التفكير حول الأخلاق هما: التراثيات الدينية من جهة، والخط الإغريقي للفلسفة والتفلسف."(أركون، 2011، ص 94) فالمتأمل في تاريخ النظريات الأخلاقية عند المسلمين نجدها إما تستند إلى التشريعات الفقهية والآراء الكلامية المستمدة من القرآن والسنة، أو من النظريات الفلسفية اليونانية لأفلاطون وأرسطو مثل المدينة الفاضلة للفارابي التي تحاكي جمهورية أفلاطون.

3. رهانات تأسيس الاخلاق التطبيقية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة

على الرغم من الثورات العلمية التي جرت من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين لم تعدل من تأثير هذين المصدرين فيما يخص قواعد تدريس علم الأخلاق.

لكن الأمر بدأ يتغير مع بدايات القرن العشرين نتيجة حصول طفرات كبرى في مجال علم البيولوجيا(الحياة) ما أدى إلى ظهور اللجان الأخلاقية، كاللجنة القومية للأخلاقية في فرنسا. وهناك مثيلاتها في شتى بلدان أوروبا، وهي تهدف إلى إعادة بلورة الأخلاق وتأسيسها من جديد. كل هذا من أجل أن تأخذ بعين الاعتبار المعطيات البيولوجية الخاصة بالمكانة الحقيقية للذات البشرية بعد كل التقدم والاكتشافات التي حققها علم البيولوجيا والطب، وكذلك علوم الإنسان والمجتمع."(أركون، 2011، ص 95) لهذا يتوجب على المسلمين مسايرة هذه التطورات وفتح مناقشات جدية حول الإشكالات الأخلاقية الراهنة بدل التمسك بالمناقشات والمباحث الكلاسيكية للأخلاق المستمدة من التراث الديني.

بهذا يمكن أن نعتبر أركون من بين أهم المفكرين العرب والمسلمين اللذين أدركوا وبوعي التحولات الكبرى التي حصلت في الفكر الأخلاقي الذي يساير المشاكل الجديدة سواء البيوتيقية أو الإيكولوجية. ولذلك انخرط أركون في الكثير من اللجان الأخلاقية فهو يقول في هذا الصدد: كان لي الحظ في أني شاركت في اللجنة الأخلاقية من أجل العلوم كأحد أعضائه، وهي اللجنة التي تشكلت في بداية الثمانينات في فرنسا التي كانت تواكب التغيرات التي طرأت على المبادىء والتصرفات الأخلاقية في مواجهة التحديات التي تطرحها علينا المعارف الجديدة الخاصة بمكانة الذات البشرية ومصيرها."(أركون، 2011، ص 95)

أما في العالم الإسلامي، فبالرغم من وجود بعض المحاولات لتأسيس لجان ومدونات أخلاقية جديدة، لكنها حسب رأي أركون أنه جرى تغييب سؤال الأخلاق في السياقات الإسلامية منذ عهد مسكويه قبل ألف سنة. فلم يعد أحد يهتم

بالأخلاق كعلم كما كان يحصل في العصر الكلاسيكي الذهبي من عمر الحضارة العربية الإسلامية، وهذا نتيجة هيمنة الخطاب الإسلاموي الشعوبي المتزمت على المجتمعات العربية."(أركون، 2011، ص 96) فهي بهذا لم تستطع مواكبة التحولات الكبرى للمجتمعات الإنسانية المعاصرة التي أسست لمنظور جديد للأخلاق المبني على القيم الإنسانية الكونية المشتركة.

لهذا يدعو أركون إلى إعادة النظر في مفهومنا للأخلاق ومنظومتنا القيمية، التي تحصر الأخلاق في مجال الأفعال والارادة الإنسانية، بل يتعداها الى الطبيعة والحيوانات، وهي من الإشكاليات المعاصرة التي يتوجب على المسلمين الانفتاح عليها. فقد ظهر مفهوم جديد للأخلاق- الأخلاق البيئية – فقد حاول مناضلي أحزاب البيئة أو "الخضر" الذين يعتمدون في سياستهم على العمل التربوي والممارسات العلمية المحسوسة المرتكزة على أخلاق شمولية مؤسسة على الإجماع، وذلك كله بغية خدمة الكرة الأرضية وسكانها."(أركون، 2011، ص 231) وهي دعوة لتأسيس أخلاق كونية تشارك فيها كل المجتمعات البشرية.

إن التأسيس لمثل هذه الأخلاق الشمولية تهدف إلى تشكيل مجتمع كوني يشمل شعوب الأرض جميعا، وهذا لن يتم إلا بتقليص الاختلافات والثغرات بين رؤى العالم العديدة عن طريق الارتكاز على نظام مشترك للقيم."(أركون، 2011، ص 231) الذي يعتبر هذا النظام الأخلاقي الجديد هو محصلة استشعار للضمير الأخلاقي على أربعة مستويات.

أولا: استشعار الضمير الأنثربولوجي: نقصد بذلك تحديد القواعد اللغوية والفكرية والاجتماعية والايكولوجية البيئوية التي تعتمد عليها التجليات والإنجازات المختلفة للأنا

كذات بشرية، وللفئات الاجتماعية، والذاكرة الجماعية للمؤسسات."(أركون، 2011، ص 231،232)

ثانيا: استشعار الضمير البيئوي الايكولوجي: هذا يعني أن تكتشف كل ذات بشرية نفسها، وتتصرف بصفتها ساكنة للفضاء الحي نفسه مع الناس الآخرين. لكننا نعلم أن هذه الشروط أبعد ما تكون عن تحقيق المرضي في هذه الضجة الهائلة والإخراج الاستعراضي الايكولوجي، حيث هذه الأرض ليست مدعوة بصفتها تلك في كل المناقشات الدائرة عن الفضاء الحيوي والسياسات الايكولوجية. وينبغي العلم أن الفاعلين الاجتماعين يكتفون كل اهتماماتهم وكل رهانات في كيفية التوصل إلى السلطة السياسية، والسيطرة على الدولة بصفتها جهاز لممارسة العنف الشرعي."(أركون، 2011، ص 232)

ثالثا: استشعار الضمير المدني: أي الإحساس بالمسؤولية تجاه البشر الآخرين ثم التضامن معهم أينما كانوا على سطح الأرض باعتبارها شخصا فاعلا حيا بشكل كامل، ينبغي أن نشعر بمسؤوليتنا تجاهها فلا نلوثها أو نخربها أو نوسخها أو نستنفذ طاقتها أكثر مما يجب."(أركون، 2011، ص 232)

رابعا: استشعار الضمير الروحاني: هذا الضمير مرتبط بالمهمة الروحية العليا للإنسان على هذه الأرض. فالإنسان ليس حيوانا ماديا فقط، وإنما هو أيضا كائن روحاني ينبغي إيلاء مكانة أساسية لعمل الفكر والفهم والتأويل الخاص بالوضع البشري، وكذلك إيلاء مكانة كبيرة للتواصل الديمقراطي بين الذوات البشرية في المجتمع والتاريخ بصفته مسارا متنوعا ومتفاوتا من حيث كونه مسرحا لتحقيق هذا الوضع البشري بالذات بشكل محسوس."(أركون، 2011، ص 232)

إن تحقيق هذه المستويات ستسمح للمسلمين والعرب فتح الأخلاق على أفق جديدة غير معهودة نتيجة الفتحات العلمية. فلم تعد الأخلاق تدرس فقط الوضع البشري، وما يترتب عنها من علاقات إنسانية، بل تعداه إلى بناء علاقة أخلاقية مع الطبيعة نتيجة المشكلات الايكولوجية التي تهدد الوجود البشرى كالاحتباس الحراري والاستغلال المفرط للطبيعة، واستباحة قداستها لتتحول علاقة الإنسان بالطبيعة من علاقة معرفة إلى علاقة استغلال وسيطرة. لهذا وجب على المسلمين أن يشاركوا الإنسانية هذه الهموم الأخلاقية الجديدة التي تعني الوجود البشري. لهذا يتوجب حسب أركون "تحديد مصادر الأخلاق الحديثة والتزاماتها؛ لأن هذا التجديد يشمل الأرض المعمورة كلها، ولا ينحصر في شعب واحد أو دين واحد أو دولة واحدة، فهو يهدف في نهاية المطاف إلى بلورة أخلاق كونية."(أركون، 2011، ص 232) يكون المسلمون جزءا مشاركا في بلورة هذه القيم، لتصبح الثقافة العربية الإسلامية لها حضور فاعل في الثقافة الإنسانية العالمية.

خاتمة:

من بين أهم النتائج التي توصلنا إليها في دراسة المشروع الأخلاقي لمحمد أركون هي:

* دعوة أركون إلى نقد مرتكزات العقل الإسلامي من أجل تحرير الوعي الإسلامي من السياجات الدغمائية.

* محاولة فك الارتباط بين الأخلاق والدين، وتحريره من التحديدات الثيولوجية والفقهية والكلامية.

* الاستفادة من تجربة الأنسنة العربية في مجال الأخلاق وخاصة تجربة مسكويه من أجل تحرير الوعي الأخلاقي من سيطرة الفكر الديني.

* إعادة النظر في الإشكالات الأخلاقية التي يشتغل فيها الفكر العربي والإسلامي المعاصر، والانفتاح على المشكلات الأخلاقية المعاصرة التي تشكل تحديات للإنسانية خاصة، إفرازات العلم كالأسلحة النووية والثورة البيولوجية التي غيرت مفهومنا للإنسان، وظهور علاقات أخلاقية جديدة كحقوق الحيوان والطبيعة التي أدت إلى ظهور حركات مدافعة عن البيئة وحقوق الحيوان.

* محاولة التأسيس لمنظومة أخلاقية قيمية جديدة تتأسس على الكونية ووحدة المصير البشري، وتجاوز كل التصنيفات العرقية والدينية والمذهبية لخدمة الجنس البشري.

يمكن القول أن أركون حاول توظيف تجربته في مجال الأخلاق من خلال انخراطه في الكثير من اللجان الأخلاقية، وهذا ما جعله يفتح مناقشات جدية في الفضاء الإسلامي لتحرير الأخلاق من المنظور الديني، والانخراط في مسارات المعاصرة للمناقشات الدائرة في مجال الأخلاق لموجهة التحديات التي تهدد الإنسانية. وهي مسؤولية العرب والمسلمين مثلما هي مسؤولية كل إنسان يعيش في هذه الكرة الأرضية، من أجل ذلك وجب على الإنسانية تأسيس منظومة أخلاقية قيمية مشتركة تحافظ على كرامة الإنسانية دون تمييز.

من بين اهم النتائج التي توصلنا اليها أن الأنسنة القيم الأخلاقية لا تمس بالمبادئ والقيم الإسلامية بل بالعكس يجب أن نبلور هذه القيم لتصبح قيم إنسانية عالمية، ونجسد بذلك قول الله تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، وبهذا نخرج هذه القيم من

بعدها المحلي لتصبح قيم عالمية كما هو الإسلام. رسالة عالمية مع الوعي بكل رهانات الحاضر بكل ثورته المعرفية والعلمية والحداثية.

قائمة المصادر:

- أركون، م. (1990). **الإسلام الأخلاق والسياسة**. تر: هاشم صالح. بيروت: مركز الإنماء القومي.
- أركون، م. (1997). **نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي**. تر: هاشم صالح. ط 1. بيروت: دار الساقي.
- أركون، م. (2010). **الإسلام والأنسنة مدخل تاريخي نقدي**. تر: عزة محمود. ط 1. بيروت: دار الطليعة.
- أركون، م. (2011). **نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية**. تر: هاشم صالح. ط 1. بيروت: دار الساقي.